أول من تسعر بهم النار

فقد أوجب الله سبحانه علينا أن نعبده وحده مخلصين له الدين: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}(البينة:5)، وفي الآية حث لنا على الإخلاص، وبيان أنه شرط أساسي في قبول العمل الصالح؛ إضافة إلى شرط المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم لقول الله تعالى: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}(الكهف:110)، وقوله سبحانه: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}(الملك:2) يقول الفضيل بن عياض رحمه الله في هذه الآية: "العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه"، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: "إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبَل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السنة"1، وقال سعيد بن جبير رحمه الله: "لا يقبل قول وعمل إلا بنية، ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة"2.

يقول حافظ حكمي رحمه الله:

شرط قبول السعي أن يجتمعا	فيه إصابة وإخلاص معاً
لله رب العرش لا سواه	موافق الشرع الذي ارتضاه
وكل ما خالف للوحيين	فإنه رد بغير مين3

ويقول ابن القيم رحمه الله: "العمل بغير إخلاص ولا اقتداء؛ كالمسافر يملأ جرابه رملاً، ينقله ولا ينفعه"4، ولذلك فقد جاءت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة للتحذير من أي عمل فقد الإخلاص.

ونحب في هذا المقال أن نشير إلى حديث جليل يبين فيه النبي صلى الله عليه وسلم حال ثلاثة أصناف من الناس عملوا أعمالاً ظاهرها الصلاح؛ لكنها فقدت شرطاً مهماً هو الإخلاص لله تعالى فيها؛ فاستحقوا بذلك أن يكونوا أول من تسعر بهم النار؛ فعن سليمان بن يسار قال: تفرق الناس عن أبي هريرة فقال له ناتل5 أهل الشام: أيها الشيخ حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتى به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك

القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتى به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار)) رواه مسلم (3527).

وأخرج الإمام الترمذي في سننه بسنده عن عقبة بن مسلم أن شفيا الأصبحي حدثه: أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا قلت له: أنشدك بحق وبحق لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: افعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلته وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة فمكثنا قليلاً ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم أفاق ومسح وجهه، وقال: أفعل، لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خاراً على وجهه، فأسندته طويلاً ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل، وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال إن فلاناً قارئ فقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ذلك، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: فيما ذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك) ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال يا أبا هريرة: (أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة))، وقال الوليد أبو عثمان المدائني: فأخبرني عقبة بن مسلم أن شفيا هو

الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا.

قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيافاً لمعاوية؛ فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً حتى ظننا أنه هالك، وقلنا قد جاءنا هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [6] (سورة هود:15-16).

فتأمل معي أخي الكريم هذا الحديث: وكيف أن هؤلاء الثلاثة كانت أعمالهم في ظاهرها صالحة نافعة، فكان أحدهم قارئاً للقرآن، وثانيهم مجاهد، وثالثهم متصدق منفق؛ ولكنهم خابوا وخسروا؛ لأن هذه الأعمال فقدت الإخلاص؛ فكانوا من أوائل الناس تسعيراً للنار، وإن كانوا لا يخلدون في النار؛ لأنهم من أهل التوحيد؛ وقد حرَّم الله على الموحدين الخلود في النار.

ومما جاء في التحذير من الرياء حديث أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري وكان من الصحابة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك في عمل لـه لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك)) [7]، والأحاديث في التحذير من الرياء كثيرة.

واشتد تحذير السلف من الرياء، وذمُّوه ذماً بليغاً؛ فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينظر إلى رجل يطأطئ رقبته، فيقول له: يا صاحب الرقبة: ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب.

وقال علي رضي الله عنه: "للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط في الناس، ويزيد في العمل إذا أثنى عليه، ويُنقص إذا ذُم به"، وهذا أبو أمامة الباهلي يأتي على رجل وهو ساجد يبكي في سجوده يدعو فيقول له: أنت! أنت لو كان هذا في بيتك.

وقال الحسن البصري رحمه الله: "المرائي يريد أن يغلب قدر الله فيه، هو رجل سوء يريد أن يقول للناس هو صالح، فكيف يقولون وقد حَلَّ من ربه محل الأردياء" [8].

وقال بعض الحكماء: مثل من يعمل رياء وسمعة كمثل من ملأ كيسه حصى، ثم دخل السوق ليشتري به، فإذا فتحه بين يدي البائع افتضح وضرب به وجهه، فلم يحصل له به منفعة سوى قول الناس: ما ملأ كيسه، ولا يُعطى به شيئاً، فكذلك من عمل للرياء والسمعة لا

منفعة له في عمله سوى مقالة الناس، ولا ثواب له في الآخرة قال تعـالى: {**وقـدمنا إلى مـا عملـوا من عمـل فجعلنـاه هبـاءً منثـوراً**} (**الفرقان**:32)ـ **أي يبطل ثواب الأعمال التي قصد بها غير ربه تعـالى، وتصير كالهباء المنثور وهو الغبار الذي يُرى في شعاع الشمس.**9

فينبغي للمـؤمن أن يهتمَّ بـالإخلاص للـه في أعمالـه، وأن يَحْـذر الرياء فإنه أخفى من دبيب النمل، وليسْتَعِن بالله على تطهير قلبـه منه، وليرق نفسـه بهـذه الرقيـة من رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم فإنها إن أَخِذَتْ بصدق نفعت صاحبها بإذن الله تعالى جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: **خطبنا رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال**: ((**يا أيهـا النـاس اتقـوا هـذا الشـرك فإنه أخفى من دبيب النمل**)) **فقال له من شاء الله أن يقول**: **وكيـف نَتَّقِيه وهو أَخْفَى من دبيب النَّمْل يا رسول الله؟ قال**: ((**قولوا**: **اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لمـا لا نعلمه**)) 10**.**

فواجب علينا جميعاً أن نخلص العمل، ونحذر الرياء وكـل مـا يخـل أو ينقص أجر العمل، نسأل الله أن يجعل أعمالنا كلهـا صـالحة، وأن يجعلها لوجهه خالصة.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسـنة، وقنـا عـذاب النـار، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

1 **حلية الأولياء** (8/95) **لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي - بيروت، ط. الرابعة** (1405هـ).

2 **مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة** (ص64)ـ **لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة، ط. الثالثة** (1399).

3 **معارج القبول بشرح سلم الوصـول إلى علم الأصـول** (1/44)ـ **لحافـظ بن أحمـد حكمي، تحقيق**: **عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم - الدمام، ط. الأولى** (1410–1990).

4 **الفوائد** (1/49) **لابن القيم، دار الكتب العلمية - بيروت، ط. الثانية** (1393–1973).

5 **هو ناتل بن قيس الحزامي الشامي من أهل فلسطين، وهو تابعي، وكان أبـوه صـحابياً وكان ناتل كبير قومه.**

6 **رواه الترمذي** (2382)، **وقال الألباني**: "**صحيح**" **كما في صحيح الترغيب والترهيب برقم** (22).

7 **رواه الترمذي** (3079)ـ **وابن ماجة** (4193)ـ **وقال الشيخ الألباني**: "**حسن**" **كما في صحيح الترغيب والترهيب برقم** (33).

8 **الكبائر** (ص143) **محمد بن عثمان الذهبي، دار الندوة الجديدة - بيروت.**

9 **الزواجر عن اقـتراف الكبـائر** (1/08)ـ **لابن حجـر الهيثمي، تم التحقيـق والإعـداد بمركـز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، الناشر**: **المكتبة العصرية**، 1420هـ - 1999م **لبنان - صيدا - بيروت.**

10 **رواه أحمد** (18781)، **وقال الألباني**: "**حسن لغيره**"؛ **كما في صحيح الترغيب والـترهيب برقم** (36).